المحاضرة التاسعة: المقترب الإثنوجرافي في تفسير التلقّي في المشاهدة التلفزيونية:

إنّ تحليلات الأنظمة الرمزية أو الثقافية (وسائل الإعلام) ليست علوما تجريبية تبحث عن قوانين، بل هي علوم تأويلية تبحث عن دلالات ينتجها المتلقون، وما على الباحث في ميدان الإعلام إلاّ وصف وتحليل هذه الدلالات الناتجة من جرّاء تفاعل المتلقي مع المادة الإعلامية، إذ أصبح ينظر لهذه الأعمال بأنها الجيل الجديد من الدراسات الإعلامية والتي أصبحت تسمى تحت إسم دراسات التلقي الحديثة، ومن بين هذه الدراسات التي أعطت دفعا قويا لظهورها نذكر المقتربات التالية:

1- المقترب الإثنوجرافي:

على الرغم من كون المنهج الإثنوجرافي منهجا قديما تم توظيفه في ميدان الأبحاث الإجتماعية، إلا أن أبحاث الإتصال في السنوات الأخيرة أصبحت تعتمد عليه في دراساتها، ومن أشهر الباحثين في ميدان الإتصال الّذين قاموا بتوظيفه نذكر بعض أعمال دايفيد مورلي، مع ملاحظة أنّ الأعمال الأولى المؤسّسة لهذا المنهج هو عمل الباحث ريتشارد هقار Richard Hoggart الّذي حاول من خلاله دراسة مختلف الأبعاد الخاصة بالحياة اليومية للطبقة الشغيلة في إنجلترا ووصفها وصفا دقيقا، خاصة وأنّ إنتشار التلفزيون في تلك الفترة أدّى إلى ولوج الثقافة الجماهيرية في تلك الأوساط الشعبية وهذا ما كرّس ظهور نوعا من المقاومة لمواجهتها، علما أنّ عمله هذا نشر في كتاب تحت عنوان"La culture du pauvre ثقافة الفقير "، وعودة لما ذكرناه في بداية هذه النقطة، فقد عمل دايفيد مورلي David Morley على الإبتعاد عن الإنبهار بالنموذج السيميولوجي الذي يفترض قراءة منمّطة وموحّدة للصور، وعمل على تبني نموذج ستوار هال Stuart Hall المشهور في ميدان بحوث الاتصال الترميز وفك الترميز حيث يَحتلّ عمل Morley المتّصل بإثبات الطابع الفاعل للجمهور داخل الدراسات الثقافية قدرا كبيرا من الأهمية، إذ سمح للعديد من الدراسات بإتخاذه كمرجعية ومنهجية لأعمالهم، وتتمثّل بعض أعمال هذا الأخير فيما يلي:

1-1- جمهور برنامج **Nationwide**:

تعتبر هذه الدراسة عام 1980 بمثابة تحوّل فاصل في الإتجاه البحثي لما يعرف بالدراسات الإعلامية، فقد ركزّت هذه الدراسة على تحليل برنامج إخباري بريطاني موجه إلى جمهور واسع غير متجانس، يتكون من 29 مجموعة كانت قد شاهدت هذا البرنامج في BBC1، وتعكس هذه المجموعات بنيات إجتماعية وإقتصادية مختلفة، وقد توصّل الباحث إلى نتيجة مفادها أن النّص لا يتمّ إنتاجه بطريقة معزولة وإنّما تتدخل فيه مجموعة من الشروط التاريخية تعطي للنص دلالته من جهة، ومن جهة ثانية أعاد التوكيد على أن الرسالة متعددة المعاني نتيجة لتعددية القراءات.

1-2- تلفزيون العائلة (**family télévision**):

لقد كتب Stuart Hall في مقدمة كتاب David Morley: **التلفزيون العائلي، السلطة الثقافية والترفيه المنزلي** قائلا: " إنّ التصورات الفردية للمشاهد وللجمهور، وحتّى للتلفزيون ذاته قد إرتحلت– نهائيا على الأقل حسب ما نتمناه– بفضل التشديد على الإختلافات والمتغيرات وإنّ خريطة التغيرات ناتجة عن العوامل التي تعمل في السياقات الإجتماعية للتلقي الّتي شرع Morley في إنجازها، وإنّ ما تكتشفه هذه الخريطة بصفة عامة، هو التفاعلات الرقيقة بين المعنى والمتعة، والإستخدام والإختيار، وبالتّالي تندرج هذه الدراسة ضمن النظريات التي إعتبرت الجمهور بأنّه نشط وفعّال في تعرّضه للخطاب الإعلامي "، حيث إنتقل David Morley في هذه الدراسة من التركيز على دراسة مضامين وسائل الإعلام إلى بحث إشكالية الجمهور من خلال معرفة الكيفية التي يكوّن بها الجمهور معانيه نتيجة تعرّضه للنصوص الإعلامية، ومن ثمّة فإنّ مبدأ فك التشفير الذي إعتمد عليه في دراسته الأولى ترك المجال لدراسة "سياق المشاهدة التلفزيونية وصيرورتها"، والتي تعتبر منهجية رئيسية لفهم النشاط الّذي يقوم به المتلقي من خلال مشاهدته لبرنامج معين.

كما كانت هذه الدراسة تهدف إلى إكتشاف مختلف التفاعلات التي تحدث بين أعضاء العائلة أمام جهاز التلفزيون – بطبيعة الحال أثناء المشاهدة – وذلك في السياق الطبيعي لتلقي البرامج التلفزيونية أو كما يسمى المحيط العائلي، علما أن الدراسة إشتملت 18 عائلة إنجليزية مكونة من شخصين بالغين وطفلين؛ ينتمون في أغلبيتهم للطبقة العاملة وهم الملاحَظين والمستجوبين في هذه الدراسة، وكان الهدف الأساسي لِـ Morley في هذه الدراسة هو إكتشاف الإختلافات بالنسبة لكل عائلة ولكن أيضا بين العائلات في حدّ ذاتها في سياق المشاهدة التلفزيونية من جهة، ومن جهة ثانية بسلطة الإختيار بين الجنسين، علما أنّه لم يهمل إطار التحليل لبنية الجمهور على مستوى الطبقة والتعليم والإيديولوجية التّي يعتنقها الأفراد حيث إعتبر الطبقة الإجتماعية عاملا أساسيا يؤثّر بطريقة مباشرة

في كيفية المشاهدة ومختلف التأويلات التي يتوصّل إليها الأفراد، ومن هذا المنظور دَرَسَ Morley كيفية إستهلاك الجمهور للتلفزيون وذلك في إطار إجتماعي– تقني وثقافي واسع، من خلال فهمه للتّعقيد الذي تتّسم به ظاهرة التلقي إنطلاقا من طريقة تعامل كل عائلة مع التكنولوجيات المنزلية ومختلف التأويلات التي تصاحب سياق المشاهدة.

وإنطلاقا من هذا الإعتبار، فإنّ الباحث حاول إكتشاف مختلف التفاعلات التي تحدث داخل الأسرة حول شاشة التلفزيون، حيث يحتل هذا الأخير مكانة هامة في النشاط العائلي وتوليد مختلف القراءات الخاصة بهم من خلال المعنى والمتعة والإستخدام والإختيار.